مقدمة المترجم :

فى مطلع عام ١٩٣٨ جاء المستشرق الفرنسى ليفى بروفنسال إلى القاهرة، بدعوة من كلية الآداب فى الجامعة المصرية إذ ذاك، وألقى برعايتها، فى مارس من العام نفسه، ثلاث محاضرات فى الجمعية الجغرافية الملكية بالقاهرة عن : «الحضارة العربية فى إسبانيا» باللغة الفرنسية، وجمع هذه المحاضرات فى العام نفسه، وأضاف إليها موجزاً بالمصادر الهامة التى عاد إليها، وملحقًا بالتواريخ البارزة فى تاريخ الأندلس، سياسيًّا واقتصاديًّا واجتماعيًّا وفكريًّا، وطبع ذلك كله باللغة الفرنسية فى القاهرة، وصدرت الطبعة الأولى منه بعد شهرين من إلقاء المحاضرات، أو إن شئت الدقة فى ٣٠ من أبريل عام ١٩٣٨، بعنوان : La Civilisation arabe en Espagne, Vue générale الحضارة العربية فى إسبانيا نظرة مجملة. ثم أعاد نشر هذه المحاضرات، أو الكتاب، مرة ثانية فى باريس، عام ١٩٤٨، فى نطاق سلسلة الدراسات التى كان يشرف على إصدارها، تحت عنوان : «إسلام أمس واليوم Islam d'hier et d'aujourdhui».

وأضفت إلى هذه الترجمة مقالا كان ليفى بروفنسال قد كتبه فى

«مجلة المعهد المصرى» فى مدريد، العدد الأول منها، وصدر عام ١٩٥٣، بعنون: «المذهب المالكى فى الأندلس، وإسهامات المذاهب المشرقية الأخرى Le Malikism andalou et les apportes doctrinaux de l'Orient. لأنى رأيت ذلك مفيدًا فى توضيح بعض الآراء التى أهملها المؤلف فى المحاضرات، أو جاء بها مجملة للغاية، فى الوقت الذى نعرف فيه جميعًا الدور الهام الذى لعبه الفقهاء فى حياة هذا القطر الوحيد الذى غابت عنه شمس الإسلام بعد قرون طويلة، وليس ببعيد أن تشرق من جديد.

أتيحت للمحاضر وكاتب المقال ميزات كثيرة تجعل لما يلقى أو يكتب أهمية خاصة، فقد وقف عمره على حضارة الأندلس والمغرب، فى مختلف جوانبها، وقدم لنا فى هذا المجال عددًا هائلا من الأبحاث والكتب والمقالات ونشر المخطوطات، وأعانه عليها أن المغرب الكبير فى تلك الفترة من الزمن كان واقعًا بأكمله تحت الاستعمار الفرنسى، فأتيح له أن يقتحم المكتبات العامة والخاصة، وأن يقع على مخطوطات لا تصل إليها يد غيره ولم يترك فى هذا سبيلا إلا سلكه، ولا وسيلة إلا استخدمها، مهما يكن موضعها من الرضى أو الكره، لا يرده عنها ما تواضع عليه الناس من سلوك، أو ساد بينهم من أعراف، ومهما تجاوز به الأمر حدود اللياقة أو الأخلاق.

وإلى جانب ذلك عمل أستاذًا فى جامعات باريس والجزائر،

وفى المعاهد العليا فى تونس والرباط، فأتاح له ذلك، وبعون فرنسا وثقلها فى كل الحالات، أن يعيش طويلا فى كل هذه الأمكنة، وأن يذرع شمال إفريقيا كله طولا وعرضا، وفيه تأصلت الحضارة الأندلسية، وإليه هاجر معظم الأندلسيين بعد أن طُردوا من وطنهم نهائيًا وجملة عام ١٦١٣م. وخالط هؤلاء وغيرهم، وعرف حياتهم فى أناة، وتأمل بيئاتهم عن قرب، وكان له فى حاضرهم تفسير معقول لما غمض من قضايا وطنهم فى ماضيه البعيد، ومن ثم كان ليفى بروفنسال حجة فيما يكتب أو يقول فى هذا المجال.

أقول ذلك، دون أن أتجاوز عن منهجى فى تناول ما يكتب المستشرقون، ورأيى دائمًا أنهم يكتبون فى ضوء فهمهم وذوقهم وتكوينهم المزاجى، ولصالح بلادهم وثقافتهم أولا وأخيرًا، وليس لنا أن نطلب منهم غير ذلك، والباحث الموضوعى الكامل لمّا يخلق، وبحسبنا منهم ألا يكذبوا، أو يزيّفوا، وعلينا أن نقف على قولهم، وأن نفيد من منهجهم، وأن نضع يدنا على الوثائق والحقائق التى تحت أيديهم، وهو أمر ليس متيسرًا على الدوام، وأن نأخذ من آرائهم ما هو حق، دون أن يصدنا جهل أو غرور، وأن نرد عليهم ما هو باطل، دون أن يقعد بنا تهاون أو جبن، ولهذا حرصت كعادتى على أن أترجم النص كاملا، فى أمانة، مهما يكن رأيى فى بعض ما يحمل من آراء.

***

ظهر أول بحث لليفى بروفنسال عن حضارة المغرب عام ١٩١٧، وما لبث أن لحق بزمرة المستشرقين الذين أصدروا مجلة هيسبيريس Hespéris فى باريس عام ١٩٢١، وأوقفوها على كل ما يتصل بتاريخ المغرب والأندلس وحضارتهما، وفيهم يومئذ الأثرى هنرى تراس، واللغوى جورج كولان، واختص ليفى بالتاريخ ومتعلقاته، وفى تلك الحقبة نشر الجزء الأول من فهرسته للمخطوطات العربية فى مكتبة الرباط، وبحثًا عن نسخة ملكية من المصحف الشريف ترجع إلى القرن الرابع عشر الميلادى، ودراسة عن مخطوطتين جديدتين لكتاب «روضة النسرين»، وبحثًا عن نسخة من «كتاب العبر» لابن خلدون، كان المؤلف نفسه قد أهداها إلى مكتبة القرويين فى فاس، ولما مات هنرى باسيه عام ١٩٢٦، خلفه ليفى بروفنسال فى إدارة هيسبيريس والمعهد العالى للدراسات المغربية على السواء.

وبدأ اتصاله بالأندلس عن طريق المخطوطات أيضًا، حين قدم إسبانيا ليضع فهرسًا للمخطوطات العربية فى الإسكوريال يكمل به الفهرس الذى سبق أن بدأه المستشرق الفرنسى درنبورج، وظهرت تكملته، وكان الجزء الثالث، فى باريس عام ١٩٢٨.

ومن المخطوطات الأندلسية الهامة التى نشرها نصوص تتصل بأخبار المهدى، محمد بن تومرت، وابتداء دولة الموحدين، لمؤلفها أبى بكر الصنهاجى، ويكنى بالبيدق، ونشرها ليفى بروفنسال

بعنوان : «وثائق لم تنشر من قبل فى تاريخ الموحدين»، باريس عام ١٩٢٨، و«صفة جزيرة الأندلس»، وانتخب مادته من كتاب «الروض المعطار فى خبر الأقطار»، لأبى عبد الله بن عبد المنعم الحميرى، ونشرته لجنة التأليف والترجمة والنشر فى القاهرة عام ١٩٣٧.

والجزء الثالث من «البيان المغرب» لابن عذارى ونشره فى ليدن عام ١٩٣٠ وكتاب الأمير عبد الله، آخر ملوك بنى زيرى فى غرناطة، المسمى بكتاب التبيان، ونشره فى القاهرة عام ١٩٥٥، فى سلسلة «ذخائر العرب» التى تصدرها دار المعارف فى القاهرة، بعنوان : «مذكرات الأمير عبدالله»، وثلاث رسائل أندلسية فى آداب الحسبة والمحتسب، ونشرها المعهد الفرنسى فى القاهرة عام ١٩٥٥، وتضم رسالة ابن عبدون فى القضاء والحسبة، ورسالة أحمد بن عبد الله بن عبد الرؤوف فى آداب الحسبة والمحتسب، ورسالة عمر بن عثمان فى الحسبة.

وبعد أن انتهت مرحلة الأبحاث المفردة، وجمع المخطوطات وتصنيفها ونشرها، كتبًا أو فى المجلات المتخصصة، عكف على كتابة تاريخ الأندلس، فكان كتابه الرائع : تاريخ إسبانيا الإسلامية حتى سقوط الخلافة، وإسبانيا الإسلامية، النظم والحياة الاجتماعية، وهما أفضل ما كتب فى هذا المجال، وكلاهما مترجم إلى اللغة الإسبانية.

ثم أنشأ مجلة أرابيكا Arabica فى باريس، ليلتقى حولها المستشرقون، والمتخصصون فى الدراسات العربية بعامة وفى المغربية والأندلسية بخاصة، وكان يرأس تحريرها، ولا تزال توالى صدورها، وتتمتع بقدر كبير من التقدير والاحترام فى دوائر المثقفين.

وكان فى نيته أن يمضى بتاريخ الأندلس حتى نهاية دولة الإسلام فيه، ولكن المنية عاجلته، فتوفى فى ٢٦ من مارس ١٩٥٦.

وبعد، فالكتاب بين يدى القارىء، وهو فى تركيزه يغنى عن كثير، ولقد بذلت فيه من الجهد ما وسعنى، فما كان صوابًا فمن فضل الله، وما تجاوزت فيه الحق، فعلى غير رغبة منى ولا إرادة، والبشر خطّاءون، ولقد أتيت على هوامش كل فصل فى آخره، وما جاء بأسفل الصفحات، وهو قليل، حررته أنا، تعليقًا أو توضيحًا.

ومن الله التوفيق، وعنده حسن الجزاء.

الدكتور الطاهر أحمد مكى

٣ شارع مصدق
الدقى - الجيزة
ت : ٣٦١٣٣٠٦
٣٤٧٩٣٩٢